فاعلية البعد الدّينيّ في تشكيل المتخيل السّردي العربي القديم
السّرديّة العربيّة لعبد لله إبراهيم نموذجا

د/ رخروخ عبد المجيد /المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

الملخص: يجتهد هذا البحث في دراسة أثر البعد الديني في تشكيل المتخيل السردي العربي القديم، وذلك من خلال كتاب :"السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي" لعبد الله إبراهيم، كعينة يمكن من خلالها الكشف عن تلك العلاقة ومدى أثرها في تشكل بعض أنواع الأشكال الحكائية العربية القديمة؛ كالخرافة، والسيرة، والمقامة.وقد اعتمد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي لمناسبته لطبيعة البحث.

الكلمات المفتاحية: السرد ، المتخيل، العربي، القديم، المقامة، السيرة، الخرافة.

Abstract: This article aims to study the impact of the religious dimension in the fondation of the old Arabic narrative, through the book: "the Arabic narrative, research in the narrative structure of the narrative Arab heritage" ; to Abdullah Ibrahim, as a sample through which we can detect that relationship and its impact in the formation of some types of ancient Arab narrative, such as myth, biography, and maqàma.
This research was based on the analytical descriptive approach to the nature of the research.

Keywords: narration, imagined, Arabic, oncient, maqàma, biography, myth.

مقدمة:

نحا الخطاب النقدي العربي الحديث و المعاصر خلال الربع الأخير من القرن العشرين منحى غير مألوف من قبل، جعل بعضا منه ينحاز بوعي منهجي عميق مرتكز على رؤى معرفية مؤسسة إلى المتخيل السردي العربي أعني القديم منه تحديدا بعدما ركن زمنا طويلا إلى النتاج الشعري ، هذا المنحى على الرغم من أن الباحثين الذين يستهدفونه قليلون بالنظر دائما الى نظرائهم من المنشغلين بالشعر بيد أنهم استطاعوا ـــ إلى حد ما ـــ حجز مكانة لافتة في الدرس النقدي العربي الحديث والمعاصر من أمثال مصطفى ناصف في: محاورات مع النقد العربي، وعبد الفتاح كيليطو في:المقامات ـ السرد و الأنساق الثقافية ـ، والأدب والغرابة ، و الحكاية و التأويل ، و الغائب ... الخ.

و عبد الله ابراهيم في كتبه التي استهل عناوينها بـــالسردية العربية ، أقصد منها ههنا السردية العربية ـ بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي المطبوع في سنة 1992 في المؤسسة العربية للدراسات و النشر ببيروت لبنان، ولأهميته و إقبال المهتمين بمثل هكذا عناوين أعيدت طباعته في سنة 2000 في دار النشر نفسها من الحجم المتوسط في 285 صفحة موزعة على أربعة أبواب مسبوقة بمقدمتين عن الطبعتين المشار إليهما آنفا و مدخل خاص بـالسردية المفهوم والاتجاهات، عنونت هذه الأبواب على النحو الآتي مرتبة : المرجعيات الخارجية للسرد العربي مقسم إلى فصلين، ثم الباب الثاني بعنوان الحكاية الخرافية ، فرّع هو الآخر إلى فصلين، أما الباب الثالث فخُصّ للسيرة جزّئ هو أيضا الى فصلين و أنهي بالباب الرابع بعنوان المقامة بفصلين ثم تم الكتاب بالسردية العربية خاتمة له تلتها ملاحق.

ونظرا لاتساع مادة الكتاب، وتشعبها ارتأى البحث الاقتصار على جزئية تناولها فوضع لها عنوانا: البعد الديني في تشكيل المتخيل السردي العربي القديم قاصدين به تشكّل البنيات الحكائية العربية القديمة في إطار نسق ديني وثقافي عام يحجز في نطاقه الخطاب السردي العربي القديم حيزا مهما ، وذلك ما أشار إليه الباحث عبد الله ابراهيم بالمرجعيات الخارجية للسرد العربي مقتصرين على ثلاثة أشكال سردية و هي الخرافة، والسيرة، والمقامة .

مارس العرب قديما أسلوب الحكي بأشكال مختلفة منها:الخبر، والخرافة، والسيرة والمقامة بحسب ما أشار إليه عبد الله إبراهيم في كتابه هذا، حيث بقيت أساليب الحكي هذه تتأرجح بين رحابة المتخيل حينا، وسلطة المعتقد حينا آخرا ، ضمن هذا الإشكال نمت أشكال السرد العربي القديم و تبلورت بناها المشكلة له .

أ . الخرافة (superstition ou chimére)

ركز المهتمون العرب قديما بأشكال السرد العربي الحكائي آنذاك اهتمامهم على من ينتج هذه الأشكال الحكائية في بادئ الأمر، محاكين في ذلك ما أفرزته السلطة الدينية من معايير صارمة في قبول النصوص الشرعية ممثلة خاصة في الحديث النبوي الشريف، وهذا ما حاولوا ــ إلى حد ما ـ تجسيده في تعاملهم مع الخطاب الخرافي، "فإذا قمنا بتصنيف القائلين فإننا لا شك سنقف على قائل معين موسوم بالغرابة لأنه يبتعد عن التصورات المألوفة لدى مجتمع ما.هذا القائل الغريب يظهر في عدة أشكال. فهناك المجنون والمهرج والمجذوب والساحر والشاذ والشاعر. كمثال على هذا الصنف يمكن أن نذكر خرافة، وهو شخص اختطفته الجن ثم عاد بعد مدة إلى أهله وصار ينطق بكلام غريب (ومن هنا عبارة : حديث خرافة[1] هذا التصور غير المبرر عقليا جعل " الموجهات الخارجية للسرد العربي قد تركت أثرها الكبير في الخرافة،

سواء في هيمنة قالب الإسناد على متونها، أم في إكسائها بغطاء اعتباري الأمر الذي جعل الخرافة حقلا خصبا يغذي موقفين متناقضين ،أولهما : انتماؤها الى نتاج الخيال والهذيان والوهم، وثانيهما : خضوعها للإسناد الذي يفترض صحة انتساب القول لقائله ، ولتخطي معضلة التناقض هذه ، وجعلها ميزة من ميزات هذا النوع السردي ، أصبحت الخرافة مثالا لكل ما هو خيالي ووهمي، ممن ينتسب إلى رواة لا وجود لهم ، وبذا يصح التأكيد أن نسيج الخرافة ما هو إلا إسناد ما لا حقيقة له إلى ما لا وجود له . وترتب أن أصبح أمر اختلاف سند ومتن متخيلين سمة مميزة للخرافة الأمر الذي جعلها ، في تاريخ الثقافة العربية، تندرج ضمن مرويات الأسمار، فامتزجت فيها المأثورات الاسرائيلية وأخبار الملوك فضلا عما ترسب في الذاكرة الجماعية من أوهام ووقائع قديمة "[2]موغلة في القدم.

إذن بدعوى الإلهاء والتفريج حجزت الخرافة مكانا لها في دائرة أشكال الحكي "فإن البوابة التي دخلت منها الخرافة ، شرعيا، إلى الثقافة العربية كان قد فتحها الرسول نفسه (ص) لا اقتداء بالأفعال الخرافية، فيما يبدو، إنما بغية التسلية و السمر اللطيف، الذي لا يخلو من هدف اعتباري لا يتعارض و تعاليم الدين الاسلامي."[3] الحنيف في أزهى عصوره على الرغم من أن "الخرافة تسند النطق لكائنات تفتقده" [4]في الغالب لا لشيئ سوى طلبا للتسلية والمتعة الحكائية هروبا من الواقع المثقل بالهموم والآفات التي يعجز هذا الإنسان المقهور فوقيا عن مجابهتها.

ومن الخرافات بحسب زعم صاحب هذا الكتاب، والتي بقيت مسيطرة على عقول المشتغلين بالحكي و أساليبه إلى اليوم كتاب ألف ليلة وليلة، إذ "الراجح أن بعض الخرافات التي يتضمنها، كانت من المرويات الشفاهية في الحواضر العربية الإسلامية قبل القرن الرابع، وسواء كانت في بذورها الأولى عربية (جاهلية) أم أجنبية

(هندية ، فارسة ، رومية)، فإن التداول الشفاهي لها أضفى عليها خصائص تفوق في أهميتها، تلك التي يفترض وجودها إذا كانت قد انحدرت إلينا من أزمنة قديمة أو مواطن أخرى"[5]. على اختلاف مواقعها.فـ"من المعلوم أن الحكمة في الخرافة توضع على ألسنة الحيوان. طبعا هناك من يحرك الأمور، لكنه يتوارى مانحا الحيوانات مَلَكَة النطق، فإلى أي حد يمكن هنا أن نتحدث عن المحاكاة ؟ مرة أخرى، تقوم هذه المحاكاة على إسناد الخطاب اللائق بنمط الشخصية التي يمثلها. الخرافة تحاكي القيمة الرمزية التي يجسدها كل حيوان ضمن مجموع الحيوانات، كل خطاب ينطق به حيوان يكون مطابقا للموقع الذي يحتله هذا الأخير في مجمع الحيوان، والدور الذي يلعب فيه. يختلف دور الأسد عن دور ابن آوى، أو الثعلب أو التمساح، وتلك تصاغ حَسب الموقع الذي يحتله في قمة التراتب الحيواني. يندرج سلوكه في إطار الدور المبرمج المخصص له مسبقا (...) والنتيجة هي استنساخ نمط قد حُدِّدت سماته بصورة نهائية."[6] لغايات شتى تختلف تبعا لتعدد المواقف والحاجات.

ب . السيرة(biographie)

تفرعت السيرة بوصفها شكلا حكائيا عربيا قديما إلى سيرة شعبية أوسيرة ذاتية أوسيرة موضوعية، على" افتراض وحدة في الثقافة العربية الكلاسيكية كيفما كانت الأنواع "[7]ومنها السيرة بعدما كانت تشير في أولى لحظات تشكلها لدى العرب الى حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كانت السيرة "تحيل على المرويات و المدونات التي عنيت بشخص الرسول محمد(ص)، كانت"الترجمة" تحيل على خلاصات موجزة للتعريف بأعلام الحديث والفقه والأدب واللغة و الطب و الحكمة ...إلخ."[8] إذن فالسيرة أعم من الترجمة وأشمل منها في العناية بحياة الأعلام، " وهي قصة حياة شخص تاريخي مشهور كتبها غيره، وهي جنس أدبي من أجناس القصص

المرجعي، كُتب في إطاره عدد كبير جدا من النصوص في الثقافة العربية الإسلامية ابتداء بسيرة الرسول عند "ابن إسحاق" و"ابن هشام"[9] وصولا إلى نصوص سيرية متعددة عبر مراحل التاريخ المختلفة.

تبقى السيرة في هيكلها البنائي بغض النظر عما تفرعت إليه مدينة لـ " بنية السيرة النبوية (التي) كانت الموجه الأول لصياغة البنى السردية للسيرة الشعبية فيما بعد"[10]من حيث المتن و السند، وهذا ما يثبت أثر المعتقد بوصفه موجها خارجيا في تشكيل الخطاب السيري العربي منذ تشكله الأول، "وعندئذ، يتداخل في النسيج النصي الحرص على التسلسل الحدثي والتدقيق التاريخي،وما يستجوبه من وثائق سياسية وعسكرية وعلمية وأدبية وغيرها، والنزعة التعليمية التي تروم تقديم نموذج جدير بالاقتداء، والنزعة الحجاجية المنافحة عن الذات ومشروعها الحياتي في مواجهة خطابات التشكيك الموجودة أو المنتظرة، فيتمازج السرد والحجاج بل يكون السرد هو نفسه حجاجيا" [11]يرمي إلى ترسيخ الصورة النموذج في ذهن المخيال الشعبي عبر التاريخ .

نميل في هذا الموضع وبتوجيه مسبق من صاحب الكتاب إلى التركيز على السيرة الشعبية تماشيا واهتمام المؤلف بها، عكس أشكال السيرة الأخرى،"ففي الأدب العربي القديم، نجد مصطلحات عديدة واردة في العناوين:سيرة، أخبار، تاريخ، ترجمة، تعريف، مناقب، فضائل...إلخ"[12]، اهتمام أولاه المؤلف للسيرة الشعبية مادامت هذه الأخيرة لم تنل حظها من الحظوة قديما في إطار النسق الثقافي السائد إذ " تنتمي السير الشعبية الى مرويات العامة ، وهذا الانتماء هو الذي جعلها تتشكل في منأى عن الثقافة المتعالية التي كانت تعنى، إجمالا، بأخبار الخاصة، الأمر الذي أفضى الى عدم العناية بهذه المرويات، تدوينا ووصفا.إن تغييب مرويات العامة، والسكوت عنها،

يرجع الى موقع العامة في الثقافة العربية الاسلامية وهو موقع مختزل ومهمش وعلى درجة عالية من الإقصاء و الاستبعاد"[13] والنفور و اللامبالاة من لدن ولات الأمور،"لكن ذلك لا يبرر اعتبار هذه السير تاريخية أو شبه تاريخية. فنسبتها إلى السرد التخييلي، وخاصة منه ذاك المحتفل بالعجائب والغرائب، لا شك فيها. أما استدعاؤها لبعض أحداث التاريخ الإسلامي ومعاركه الكبرى وأبطاله المشاهير فهو دال على الحاجة التي كانت هذه القصص تلبيها للمتلقين الذين كانوا مسحوقين بالاستبداد وحالمين بالبطل المنقذ" [14] المخلِّص مما هم فيه إلى غد أفضل قد يتحقق، أويبقى أماني يستأنس بها المغلوبون على أمرهم من عامة أفراد المجتمع المتطلعين دائما إلى ما هو خير.

ت . المقامة (maqama /séance)

تحررت المقامة بوصفها شكلا سرديا عربيا خالصا من القيود التي فرضها أهل الحديث على غيرها من الأشكال السردية الأخرى أعني الخرافة و السيرة على الرغم من عدم التقيد كلية بهذه القيود من قِبلها هي أيضا، لكنها بقيت مهيمنة على النسق الثقافي العام حيث "لم تعد المقامة، وقد استقامت نوعا سرديا، تقترن بـــ الحديث، ذلك أنها أصبحت تحيل على وقائع متخيلة، مستندة إلى راو ، يقدمها ، لا على سبيل التحقق من صدقها ، فشأن الوظيفة التي كان يقوم بها الخبر ، بل على أنها نوع من القصص الذي يصدر عن موهبة أدبية ، غايتها ابتداع قصة ، وليس رواية واقعة ، مما جعل المقامة ، لتحقيق هذا الهدف ، تقوم على راو وهمي ، يختلق متنا و همیا ، وقصد وصف القلقشندي ذلك المتن ، بأنه (الأحدوثة من الكلام) وواضح أنه يعني : حكاية " [15] انفردت بتسمية لم تسبق إليها من قبل، ألا وهي المقامة، إذ ينظر إليها بأنها "جنس أدبي قديم ظهر في القرن 4هـ/10م.وهو عربي محض، لا مثيل في

الآداب الأخرى، وقد ترجم المستشرقون المصطلح العربي باللفظ الفرنسي (sèance)"[16] كما قد يترجم باللفظ الفرنسي (maqama)."نعتقد أنه قد آن الأوان للانكباب على المقامة التي ظلت أمدا طويلا معروضة في متحف يعلوها الغبار شيئا فشيئا. ومن حين لآخر، كان يذهب سائحون أو مواطنون لتأملها نافضين بأرؤسهم باستياء أو نافخين صدورهم بكبرياء. ماذا نصنع بالهمذاني والحريري؟ ونحن متفقون على أن هذه الأسئلة عسير حلها إذ نحن مورطون فيها. والحال أننا نعكف على درس أنفسنا حين نعكف على النص الكلاسيكي، والخطاب عن الماضي هو في الآن ذاته خطاب عن الحاضر"[17] .

انبثقت هذه الأخيرة عن مناخ حكائي " شجع محاولات الابتكار و التجديد، وفتح الأفق لظهور المقامة، (مما) يتطلب وقفة خاصة، ترسم ملامحه العامة، وتؤشر أبرز نماذجه القصصية، فذلك، إنما يسلط الضوء على خلفيات فن المقامة، ويمهد لربط النتائج بأسبابها دون أن يعنى مباشرة بقضية التأثر و التأثير، فما يهدف البحث إلى تحقيقه هنا، هو أن يعرض صورة المناخ الإخباري و القصصي، في العصر الذي احتضن ولادة المقامة، ويعوم ما استقر من جهود إبداعية في مجال القص، كان وجودها قد تزامن مع ظهور المقامة "[18] فنا حكائيا عربيا صرفا.قائما على " جملة من العناصر المتواترة في أغلب النصوص تبدو كالثوابت التي لا قوام للمقامة إلا بها .أولها ثنائية السند والمتن. فللمقامة راو رئيس يتجلى وسيطا ناقلا ما جرى."[19]

هذا المناخ الثقافي الذي جعل " المقامة نوعا سردا جديدا، ذوبت فيها كثيرا من كشوفات العصر في مجال السرد، وفي مقدمة ذلك، اعتمادها على الراوية الجوال الذي يلازم بطلا ورحالة، وبواسطة المناقلة الشفاهية بينهما، للوقائع التي عاشاها، يتكون متن المقامة، الذي من ميزاته الأساسية أنه يتضمن حكاية محبوكة حبكا فنيا

متماسكا " [20]ضمن بناء سردي فريد من نوعه،يبقى علامة مسجلة باسم عبقرية العرب الإبداعية آنذاك.

يبد أن "المقامات تختلف عن الأحاديث في كل ما ورد ذكره ، فالإسناد البسيط الذي يؤطرها ، لا يهدف إلى تقصي الحقيقة، إنما يدشن لظهور الحكاية وتهيئة أسباب المناقلة السردية للمتن بين الراوي والبطل، واعتمدت على متن قوامه حكاية متماسكة البناء، وطغى عليها غرض الكدية"[21] غرض يبقى حكرا على فن المقامة دون سواه، هذا الفن العربي النشأة والخصائص.إذ يمتاز في كونه خطاب متخيل في أحداثه وشخصياته، ابتغى من خلاله منشئه الأصلي بديع الزمان الهمذاني التغيير من واقعه، الذي كان يعج بالمتناقضات بين القول والفعل، بين المظهر والروح."وبالإضافة إلى العلاقات الممكنة للمقامة بأخبار الوعّاظ ومنافرات الشعراء ومناظرات المتكلمين وقصص المهمشين وبلاغتهم وأشعارهم في التطفل والحيل الظريفة والتسول والكدية والحمق والجنون، لا نعدم لنصوص "الهمذانية " روابط تناصية ظاهرة أو خفية بالكتابات عن الأسفار الخيالية والحقيقية وبأدب المآدب والطعام وبتصورات البلاغة والأدب، وربما بغير ذلك من التراث السابق. فالمقامة، كغيرها من الأجناس، هي نتيجة تحولات وتأثيرات معقدة وإن ظهرت من فرط تميزها كالناجمة من غير أصل والمنسوخة على غير منوال." [22] قد عهدته الأمم والشعوب قاطبة من حيث الشكل خاصة والمضمون.

ينظر إلى المقامة من حيث الشكل بأنها شكل حكائي عربي خالص لم تسبق العرب إليه،"إذ نحن مجبرون على الاعتراف بأن من بين كل خصائص المقامة تكون البنية السردية هي الأكثر استعصاء على الترابطات، وأنها في النهاية تشكل الخصيصة الذاتية للمقامة"[23] ،تنفتح على أشكال سردية وشعرية أخراة، "فهي مندرجة في دائرة

التعدد والمزيج"[24] كونها تتواشج معها في إطار النسق الثقافي العام الذي ولدت في رحابه، إنها في النهاية *"زهرة برية لا يُدرى كيف تفتقت"*[25] عربية خالصة من حيث المنشأ والخصائص البنائية.

خاتمة:

يستنتج من خلال هذا المبحث ما يأتي:

ـــ تشكيل المتخيل السردي العربي القديم كان بتوجيه من الدين الإسلامي،ممثلا في الكتاب والسنة، مما جعل هذا الخطاب مدين في تشكله للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في بنائه الحكائي من حيث المتن والسند.

ـــ يتأرجح تشكيل المتخيل السردي العربي القديم، خاصة الخرافي والسيري والمقامي بين القيود الصارمة لبناء النصوص الشرعية، وتلقيها من ناحية، وبين محاولة الانفلات منها بما يتيحه الخيال لها من رحابة في الإبداع من ناحية ثانية.

ـــ تنزاح الخطابات السردية الآنفة الذكر عن تلك الضوابط القبلية التي أملاها علماء الشريعة، في كونها تحاكيها شكلا لا حقيقة، هذا الانزياح مرده إلى ما يسمح به فن التخييل من فسحة للتعبير دون التمرد كليا عن مثل هذه الضوابط.

الهامش:

- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار توبقال الدار البيضاء المغرب، ط04، 2007، ص66.
- عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط2، 2000 ،ص86.
- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
- عبد الفتاح كيليطو، المقامات- السرد والأنساق الثقافية- دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب،ط2001،02،ص137
- عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ،ص 102

- عبد الفتاح كيليطو،المقامات ص133،134
- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دار توبقال، الدار البيضاء،المغرب،ط1999،02،ص08.
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 143.
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس ط1 2010 ص 257 .
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 147.
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات ص 258-259 .
- المصدر نفسه ص 257 .
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 154 .
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات ص 265 .
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 197 .
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات ص 407 .
- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ص 08 .
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 198 .
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات ص 409.
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 204 .
- عبد الله ابراهيم، السردية العربية ص 207.
- محمد القاضي ومساعدوه، معجم السرديات ص 409.
- عبد الفتاح كيليطو، المقامات ص97.
- عبد الفتاح كيليطو، المقامات ص06.
-المرجع نفسه الصفحة نفسها.